فلسفة شوبنهور (1)

شوبنهور زعيم فلسفة التشاؤم ومن كبار فلاسفة الالمان في القرن التاسع عشر ولد سنة ١٧٨٨ وقضى صباهُ في المانيا وفرنسا وانجلترة تبعاً لرأي والدهِ في التربية . فنشأ من ذلك حرّ الفكر لم تقيّد عقلهُ قيود المدارس التي تضر الكثير وتنفع القليل . وكان غرض والدهِ ان يعدّهُ للتجارة ولكنهُ لم يحقق هذا الغرض اذ مات منتحراً نتيجة افلاس مالي . اما امهُ وكانت كاتبة بارعة في الفنون فلحظت نشوءهُ الى العلوم فأدخلتهُ في احدى الجامعات فنبغ فيها وبدت بوادي فلسفتهِ من ذلك الوقت . فكان على شدة شهواتهِ كاتباً لما كما تشهد بذلك مذكراتهُ التي قال فيها احد مترجميهِ انها غير خليقة بالظهور امام الجمهور . ولما ترك الجامعة كانت افكارهُ قد اختمرت فألف كتابهُ المشهور : العالم ارادة وتصوّر

ولكن قضي عليهِ ان يموت قبل ان ينتبه العلماء لاقوالهِ على شدة الحاحهِ بعلو فلسفتهِ وقدرها . اما الآن فيعد في مصاف العلماء الذين قدموا الفلسفة واسفروا عن الطبيعة الخفايا الكثيرة . وقد عاش عزباً الى ان مات في سنة ١٨٦٠

١ الحقيقي والتصوري

قال شوبنهور عن كتابهِ انهُ ليس نظاماً فلسفياً بل تصوّر يمكن تطبيقهُ على كل اعمالنا . وهذا التصوّر ينحصر في القول بان كل الاشياء التي حولنا — كل هذا العالم الذي نشعر بهِ او نراهُ هو خيال ولا نعرف حقيقتهُ . مثال ذلك هذا الكتاب فنحن لا ندرك حقيقة الكتاب بل ندرك ما تدلنا عليهِ حواسنا عنهُ . فعلمنا عن الكتاب تصوري خيالي لا حقيقة . فلو زادت لينا قوة الشم مثلاً الى درجتها في الكلب لغيرما نعرفهُ عن الكتاب

فنحن اذن نعرف ظاهر الشيء او هيئتهُ اما ذاتيتهُ او حقيقتهُ فلا نعرفها لان حواسنا تدلنا فقط على ظواهر الاشياء . فاذا اردنا ان نفهم كنه الطبيعة او سرها وجب ان نعتمد على شيء آخر غير حواسنا

ولكن علومنا ومعارفنا كلها مبنية على ادراك الحواس . اذن فعلومنا خطأ ونحن نعرف ظواهر الاشياء لا حقيقتها

ولكنك ترى في الطبيعة نواميس ثابتة تدل على قوة كامنة فيها كالجاذبية مثلاً . ويقول شوبنهور ان الجاذبية هي مظهر من مظاهر القوة العالمية التي يسميها بالارادة

(1) The World as Will and Idea by Schopenhauer

فالارادة هي الحقيقة الوحيدة التي نعرفها . ونحن نعرفها من أنفسنا اولاً فهي تعبّر عن نفسها فينا بالشهوات والغرائز وتعبر عن نفسها في العالم بكل المظاهر التي تظهر امامنا . فحركة السيارات وجري الرياح والانهار وقتال الوحوش والحياة نفسها — كل هذه تعتبر من مظاهر القوة او الارادة العالمية . فالارادة حقيقية فينا بمعنى أنها غير مبنية على الحواس التي تنقل لنا صور الاشياء او هيئتها وهي امر الحركة والعمل فينا وفي الطبيعة

٣ فلسفة التشاؤم

ولكن ما هي نتيجة هذا التصوّر ؟ لنبحث أولاً عن حقيقة الارادة

اذا اردنا ان نأكل عينا بذلك اننا في حاجة الى الاكل . واذا لم نكفر هذه الحاجة شعرنا بألم الجوع

فالارادة دليل حاجة في جسمنا . وهذه الحاجة دليل ألم يبدأ بالاكل فالارادة ألم

ولكن السعادة المعروفة اليوم هي ان تهدأ نفوسنا أي ان لا تتنافر طبيعتنا مع ما هو حولنا . وبعبارة أخرى ارضاء ارادتنا

ولكن ارادتنا ألم فهل ارضاء الألم سعادة ؟

اذا اردت ان اسديك فضلاً فلا ينبغي ان اكتفي بايفاء ما عليّ لك من الدين . ولكن هذه هي السعادة . فالطبيعة اذا أرضت شهواتنا او ارادتنا سميناً أنفسنا سعداء بمعنى انها اذ اوفت دينها ولم تزد عليه شيئاً اغتبطنا وفرحنا ؛ نحن فيه من السعادة

هذه هي فلسفة التشاؤم . أي ان السعادة من الاوهام الفارغة التي نجري وراءها ولا نصل اليها . والانسان عبد لارادته وبالنتيجة هو اناني فاذا سعد فبؤس غيره وقيمة الجنيه الذي في جيبه تزيد بقدر احتياج غيره اليه

وقد انكر ان الله يجازي الانسان في الحياة الثانية وقال ان الانسان مقضي عليه بالشقاء في هذه الدنيا ودواؤه الوحيد ان يتخلص من حياته ويخلص غيره بالقتل وعدم ولادة الاولاد

وقد فعل بما قال بل وزاد فعاش عزبا طول حياته واشتد كرهه للنساء لانهن سبب تخليد نوع الانسان الى حد ان ضرب واحدة منهن وغرّم بدفع اعانة شهرية لها الى ان ماتت

هذه هي خلاصة الخلاصة لما ارتآه في الكتاب المشار اليه واهم اعتراض على هذه الفلسفة أولاً ان السعادة ليست غرض الانسان — اذا أريد بالسعادة اطمئنان النفس الى ما حولها . وثانياً ان الانانية التي هي اس اعمالنا حتى في تضحية انفسنا فضيلة يجب ان تمدح وتنوى على أساليب معقولة

لندن سلامة موسى